صفات المنافقين

تأليف

الإمام ابن القيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [1]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [2] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [3]. أما بعد فإن النفاق هو الداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئا منه، وهو لا يشعر. فإنه أمر خفي على الناس. وكثيرا ما يخفي على من تلبس به فيزعم أنه مُصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر، وأصغر. فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل. وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به. لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بَشر جعله رسولا للنـاس، يهـديهم بإذنه. وينذرُهم بأسَه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهـم في القرآن، وجلى لعباده أمورَهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سـورة البقـرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية.

(١) سورة آل عمران آية: ١٠٢.
(٢) سورة النساء آية: ١.
(٣) سورة الأحزاب آية: ٧٠ ، ٧١.

لـكثرتم وعموم الابتلاء بم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بم شديدة جدا، لأنم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب، يظن الجاهلُ أنه عِلْم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟ ! وكم من حِصْن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟ ! وكم من عَلَمَ له قد طمسوه؟ ! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟ ! وكم ضربوا بمعاول الشبَهِ في أصول غراسه ليقلعوها؟ ! وكم عمّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟ !

فلا يزالُ الإسلام وأهلُهُ منهم في محنةٍ وبليِة، ولا يزال يطرقُهُ من شبُهِهِمْ سرية بعد سرية. ويزعمون أنم بـذلك مُصلحون ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [1]، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [2]. اتفقوا على مفارقة الوحي. فهم على ترك الاهتداء بـه مُجتمعون ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [3] ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ﴾ [4] ولأجل ذلك ﴿ ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [5]. درست معالـمُ الإيمان في قلوبم فليسوا يعرفونا. ودَثَرَتْ معاهدُه عندهم فليسوا يعمرونا، وأفلَتْ كواكبُه النيرةُ من قلوبم فليسوا يُحيُونَا، وكسفَتْ شمسُـه عنـد اجتماع ظُلَم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونا. لم يقبلوا هدى الله الذي أرسَل به رسوله. ولم يرفعوا به رأسا، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسا. خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة.

(١) سورة البقرة آية: ١٢.
(٢) سورة الصف آية: ٨.
(٣) سورة المؤمنون آية: ٥٣.
(٤) سورة الأنعام آية: ١١٢.
(٥) سورة الفرقان آية: ٣٠.

وعَزَلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليهـا غاراتِ التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمـين بعـد كمين. نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام، فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام. وتلَقوْها من بعيد، ولكن بالدفع في الصدُور منها والأعجاز. وقالوا: مالك عندنا من عبور- وإن كان لا بد- فعلى سبيل الاجتياز. أعدوا لدفعها أصناف العُدد وضروب القوانين، وقالوا- لما حلت بساحتهم-: ما لنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئا من اليقين. وعوامهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفَنا من المتأخرين، فإنهم أعلـمُ بها من السلف الماضين، وأقومُ بطرائق الحُجَـج والبراهين.

وأولئك غلبت عليهم السذاجةُ وسلامةُ الصدور. ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هِمَمهم إلى فعل المأمور وترك المحظور، فطريقة المتأخرين: أعلم وأحكم، وطريقة السلف الماضين: أجهل، لكنها أسلم.

أنزلوا نصوص السنة والقرآن منزلة الخليفـة في هـذا الزمان، اسمه على السكة وفي الخطبة فوق المنـابر مـرفوع. والحكْـمُ النافذ لغيره، فحكمه غير مقبول ولا مسموع. لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألسنتهُم ألسنة المسالمين، وقلوبُهم قلوبُ المحاربين، ويقولون: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ ﴾ (١). رأس مالهم الخديعةُ والمكر، وبضاعتهُم الكذبُ والخَتْر، وعندهم العقل المعيشي: إن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ (٢). قـد نكت أمـراض الشبهاتِ والشـهواتِ قلـوبَهم فأهلكتْها، وغلَبتْ القصود السـيئةُ على إرادِتهم ونياتهم فأفسدَتْها، ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنـه الأطباء العارفون ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) سورة البقرة آية: ٨.

(٢) سورة البقرة آية: ٩.

﴿أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ [1] من عَلِقت مخالبُ شكوكهم بأديم إيمانه مزقتْه كل تمزيق، ومن تعلق شرَرُ فتنِتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، ومن دخلت شبهاتُ تلبيسهم في مسامعه حـال بـين قلبـه وبين التصديق. ففسادُهم في الأرض كثير وأكثر الناس عنه غافلون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ [2].

المتمسك عندهم بالكتاب والسـنة صاحبُ ظـواهر، مبخوش حظه. من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارا، فهْمُه في حَملْ المنقول. وبضاعةُ تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول. وأهل الاتباع عندهم سفهاء، فهم في خلواتم ومجالسهم بـهـم يتـطيرون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [3].

لكل منهم وجهان: وجه َيلقْ به المؤمنين، ووجه َينقْلب به إلى إخوانه من الملحدين. وله لسانان: أحـدهما َيقْبلُه بظاهـره المسلمون، والآخـر يترجم به عن سره المكنون ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [4]. قد أعرضوا عن الـكتاب والسـنة استهـزاء بـأهلهما واستحقارا. وأبوا أن ينقادوا ِلحُكْم الوحيين فرحا بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثارُ منه إلا أشرَا واستكبارا. فتراهم أبدا بالمتمسكين بصريح الوحي

---

(١) سورة البقرة آية: ١٠.
(٢) سورة البقرة آية: ١١ ، ١٢.
(٣) سورة البقرة آية: ١٣.
(٤) سورة البقرة آية: ١٤.

يستهزئون ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1]. خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات. فركبوا مراكب الشبه، والشكوكُ تجري بهم في موج الخيالات. فلَعِبتْ بسُفُنهم الريحُ العاصف. فألقتْها بين سُفنُ الهالكين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾[2]. أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا في ضوئها مواقعَ الهُدىَ والضلال. ثم طفئ ذلك النور، وبقيتْ نارا تأجّج ذاتَ لهب واشتعال. فهم بتلك النار معُذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[3]. أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر، فهي لا تسمع منادي الإيمان، وعيونُ بصائرهم عليها غِشاوة العمى. فهي لا تبصر حقائقَ القرآن،. وألسنُتهم بها خرسٌ عن الحق، فهم به لا ينطقون. ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[4]. صاب عليهم صيب الوحي، وفيه حياة القلوب والأرواح. فلم يسمعوا منه إلا رعدُ التهديد والوعيد والتكاليف التي وظفت عليهم في المساء والصباح. فجعلوا أصابعَهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وجدوا في الهرب، والطلب في آثارهم والصياح. فنودي عليهم على رؤوس الأشهاد، وكشُفت حالهُم للمستبصرين، وضرُبَ لهم مثَلان بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين والمقلدين. فقيل ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة آية: ١٥.
(٢) سورة البقرة آية: ١٦.
(٣) سورة البقرة آية: ١٧.
(٤) سورة البقرة آية: ١٨.
(٥) سورة البقرة آية: ١٩.

ضَعُفت أبصارُ بصائرهم عن احتمال ما في الصَيب من بروق أنوارِه وضياءِ معانيه، وعجزت أسماعُهم عن تلقيّ رعود وعوده وأوامره ونواهيه. فقاموا عند ذلك حيارى في أوديـة التيه، لا ينتفع بسمعه السامع، ولا يهتدي ببصره البصير. ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [1]. لهم علامات يُعرفون بها مبينة في السنة والقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم- والله- الرياء، وهو أقبحُ مقام قامه الإنسان، وقَعَدَ بهم الكَسَلُ عما أمُروا به من أوامر الرحمن، فأصبح الإخلاص عليهم لـذلك ثقيـلا وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون النـاس ولا يذكرون الله إلا قليلًا. أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، تيعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تستقر مع إحدى الفئتين، فهم واقفون بين الجمعين. ينظرون أيهم أقوى وأعز قبيلا مـذبذبين بـين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا. يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ واقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم. وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسـب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين. فلا تحتاج بعده دليلًا ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [2]. يعجب السامِعَ قول أحدهم لحلاوته ولينه. ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومينه، فتراه عند الحق نائما. وفي الباطل على الأقدام، فخذ وصفهم من قول القدوس السلام:

(١) سورة البقرة آية: ٢٠.

(٢) سورة النساء آية: ١٤١.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾[1]. أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاهُ بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[2]. فهم جنس بعضه يشبه بعضا، يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه. وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه، كم ذكّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه؟ وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه؟ فاسمعوا أيها المؤمنون: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[3]. إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتم عنه نافرين، وإن دعوتم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين، فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمدا بعيدا.. ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضا شديدا ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ ﴾[4]. فكيف لهم بالفلاح والهدى! بعدما أصيبوا في عقولهم وأديانهم وأنى لهم التخلص من الضلال والردى؟ وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر تجارتهم البائرة! وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقا ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٠٤.
(٢) سورة البقرة آية: ٢٠٥.
(٣) سورة التوبة آية: ٦٧.
(٤) سورة النساء آية: ٦١.

بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾[1] ٤ ٦٢. نشب زقوم الشبه والشكوك في قلوبهم. فلا يجيدون له مسيغا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾[2]. تبا لهم، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمـان! ومـا أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان، فالقوم في شأن وأتباع الرسول في شأن. لقد أقسم الله جل جلاله في كتابه بنفسه المقدسة قسما عظيما يعرف مضمونه أولو البصائر، فقلوبهم منه على حـذر إجلالا له وتعظيما، فقال تعالى تحذيرا لأوليائه وتنبيها على حال هؤلاء وتفهيما: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾[3]. تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه. لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه، فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه، وكذلك أهل الـريبة يـكذبون، ويحلفون ليحسب السامع إنهم صادقون قد ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾﴾[4]. تبا لهم! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان، فلما رأوا طول الطريق وبُعْدَ الشقة نكصوا على أعقابهم ورجعوا. وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام في ديارهم. فما متعوا به ولا بتلك الهجعة انتفعوا. فما هو إلا أن صاح بهم الصائح فقاموا عن موائد أطعمتهم والقوم جياع ما شبعوا. فـكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا، وعموا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ

(١) سورة النساء آية: ٦٢.
(٢) سورة النساء آية: ٦٣.
(٣) سورة النساء آية: ٦٥.
(٤) سورة المنافقون آية: ٢.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾[1]. أحسن الناس أجساما وأخلبهم لسـانا وألـطفهم بيـانا وأخبثهم قلوبا وأضعفهم جنانا. فهم كالخشب المسندة التي لا ثمر لها. قد قلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها، لئلا يطأها السالكون. ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾[2].

يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شَرَق الموتى. فالصبح عند طلوع الشمس، والعصر عند الغروب، وينقرونا نقر الغراب. إذ هي صلاة الأبدان لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفاتة الثعلب، إذ يتيقن أنـه مـطرود مـطلوب. ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففي البيت أو الدكان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان. هذه معاملتهم للخلق، وتلك معاملتهم للخالق، فخذ وصفهم من أول (المطففين) وآخر (والسماء والطارق) فلا ينبئك عـن أوصـافهم مثـل خبـير ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٧٣﴾[3]. فما أكثرهم ! وهم الأقلون. وما أجبرهم! وهم الأذلون. وما أجهلهم! وهم المتعالمون. وما أغرهم بالله! إذ هم بعظمته جاهلون! ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾[4]. إن أصاب أهل الكتاب والسّنة عافية ونصر وظهـور، ساءهم ذلك وغمهم، وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحّص به ذنوبهم ويكفر به عنهم سـيئاتهم أفـرحهم ذلك وسرّهم. وهذا يحقق إرثهم

(١) سورة المنافقون آية: ٣.
(٢) سورة المنافقون آية: ٤.
(٣) سورة التوبة آية: ٧٣.
(٤) سورة التوبة آية: ٥٦.

وإرث من عداهم، ولا يستوي من موروثه الرسول ومن موروثهم المنافقون ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١ ﴾ (١) وقال تعالى في شأن السلفين المختلفين، والحق لا يندفع بمكابرة أهل الزيغ والتخليط: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢٠ ﴾ (٢).

كره الله طاعاتم لخبث قلوبم وفساد نياتم. فثبّطهم عنها وأقعدهم. وأبغض قربم منه وجواره، لميلهم إلى أعدائه. فطردهم عنه وأبعدهم. وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم، وأشقاهم وما أسعدهم. وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده إلا أن يكونوا من التائبين. فقال تعالى ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ۝٤٦ ﴾ (٣)، ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وإن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم. فقال وهو أحكم الحاكمين: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٤٧ ﴾ (٤). ثقلت عليهم النصوص فكرهوها. وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها با ودفعوها. ولقد هتك الله أستارهم. وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم. واعلم أنه

---

(١) سورة التوبة آية: ٥٠ ، ٥١.

(٢) سورة آل عمران آية: ١٢٠.

(٣) سورة التوبة آية: ٤٦.

(٤) سورة التوبة آية: ٤٧.

كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم، فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر. وبينها لهم فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾[(١)].

هذا شأن من ثقلت عليه النصوص، فرآها حائلة بينه وبين بدعته وهواه. فهي في وجهه كالبنيان المرصوص. فباعها بمحصل من الكلام الباطل. واستبدل منهـا بالفصوص. فأعقبهم ذلك أن أفسد عليهم إعلانهم وإسرارهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾[(٢)]. أسروا سرائر النفاق. فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم: وفلتات اللسان. ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان. وظنوا أنهـم إذ كتمـوا كفـرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد. كيف؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾[(٣)].

فكيف إذا جمعوا ليوم التلاق، وتجلى الله- جل جلاله- للعباد وقد كشف عن ساق؟ وَدُعوا إلى السجود فلا يستطيعون ﴿ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[(٤)]. أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم؟ وهو أدق من الشعرة، وأحدّ من الحسام. وهو دحض مزلة، مظلم، لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به

(١) سورة محمد آية: ٩.
(٢) سورة محمد آية: ٢٦ - ٢٨.
(٣) سورة محمد آية: ٣٠.
(٤) سورة القلم آية: ٤٣.

مواطئ الأقدام. فقسّمت بين الناس الأنوار. وهم على قدر تفاوتا في المرور والـذهاب. وأعطوا نورا ظاهرا مع أهل الإسلام. كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام. فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهوية النفاق. فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح. فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور. فضُرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب. ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح. باطنه- الذي يلي المؤمنين- فيه الرحمة، وما يليهم من قبلهم العذاب والنقمة. ينادون من تقدّمهم مـن وفـد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح على بُعدٍ كالنجوم تبدو لناظر الإنسان: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [1] لنتمكن في هـذا المضيق من العبور. فقد طفئت أنوارنا. ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ [2] حيث قسمت الأنوار. فهيهات الوقوف لأحد في مثل هـذا المضمار! كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق؟ فهل يلوي اليوم أحد على أحد في هذا الطريق؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذكروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار، كما يذكر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ [3] نصوم كما تصومون، ونصلي كما تصلّون، ونقرأ كما تقرأون، ونتصدق كما تصدقون. ونحج كما تحجون؟ فما الذي فرق بيننا اليوم حتى انفردتم دوننا بالمرور؟ قالوا بلى ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد، وكل ظلوم كفور ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [4]. لا تستطل أوصاف

(١) سورة الحديد آية: ١٣.
(٢) سورة الحديد آية: ١٣.
(٣) سورة الحديد آية: ١٤.
(٤) سورة الحديد آية: ١٤ ، ١٥.

القوم. فالمتروك- والله- أكثر من المذكور. كاد القرآن أن يكون كلـه في شـأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور. فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات. وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات. سمع حذيفة ﷺ رجلًا يقول: اللهم أهلك المنافقين. فقال: " يا ابن أخي، لـو هلك المنـافقون لاسـتوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك ".

تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولـين. لعلمهم بدقّه وجلّه، وتفاصيله وجمله. سـاءت ظنونهم بنفوسهم، حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قـال عمر بن الخطاب لحـذيفة رضي الله عنهما: " يـا حـذيفة، نشدتك بالله، هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا. ولا أزكي بعدك أحدا " وقال ابن أبي مُليكة: " أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل " ذكره البخاري. وذكر عن الحسن البصري: " ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن " ولقد ذكر عن بعض الصحابة: أنه كان يقول في دعائه: " اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعا والقلب ليس بخاشع ". تالله لقد مُلئت قلوب القوم إيمانا ويقينا، وخوفهم من النفاق شديد وهمُهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم. وهم يدعون أن إيمـانهم كإيمـان جـبريل وميكائيل. زَرْع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء. ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة. فإذا تمت هذه الأركان الأربع، استحكم نبات النفاق وبنيانه. ولكنه بمدارج السيول على شفا جُرُف هار. فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تُبلى السرائر، وكشف المستور، وبعثر ما في القبور، وحُصّل ما في الصدور. تبّين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق، أن حـواصله الـتي حصّـلها كانـت كالسراب ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ

شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [1]. قلوبهم عن الخيرات لاهية. وأجسادهم إليها ساعية. والفاحشة في فجاجهم فاشية. وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية. وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور، انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية.

فهذه- والله- أمارات النفاق. فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية. إذا عاهدوا لم يفوا. وإن وعدوا أخلفوا. وإن قالوا لم ينصفوا. وإن دُعوا إلى الطاعة وقفوا. وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صَدَفوا. وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا. فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان. والخزي والخسران. فلا تثق بعهودهم. ولا تطمئن إلى وعودهم. فإنهم فيها كاذبون. وهم لما سواها مخالفون ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [2].

تمت

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة النور آية: ٣٩.

(٢) سورة التوبة آية: ٧٥ - ٧٧.

فهرس الآيات